

القسم السابع

صقلية الاسلامية

تحت الحكم المسيحي النرمانى

رجار الثانى — كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالين النرمان قاتروا ايما تاثر بمدينة المسلمين المغلوبين ؛ و كان اختلاط العنصرين فى المدن والقرى والى البوادرى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لنا لفهم البديع .
لقد نشأت فى هاتيك الاصقاع ، منذ انتهاء عصر الفتح ، وموت الملك الفاتح رجار الاول مدينة جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كان المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسى بهاتيك الديار وضعت عصبيتهم عن مزاوله الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم فى منازعاتهم الداخيلة آخر ايام ملكهم وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت حماية النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرات مما لا تزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية .

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

«سلك طريق ملوك المسلمين من الخبايا والحياب والسلاحية والجائندارية وغير ذلك ؛ وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده واكرم المسلمين

وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه .

قال غوستاف لوبون في تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدينة الاسلامية
الترمانية : (ص ٣١٦)

« كانت مدينة العرب لا تزال زاهية زاهرة بصقلية عندما اتم الترمان فتحها
ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع
الرسول ، فاقبسوا عنهم النظم والتراتب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ؛ وبذلك
اناحوا للبلاد عصر رفاهيه دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين
ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول في موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا
(ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هو الذي
يكفل الحكم الصالح للجميع وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم من
رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته بصفة فعالة .
واقد سلك خليفته غليوم (١) خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد في
المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ؛ واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا ينضوون
تحت لوائه لمقاومة الخصوم واتحاد نيران الفتن وكانت لهم في بالرمه حارات فسيحة
ومساجد ضخمة وائمة وقاض يفصل ما شجر بينهم وبفضلهم كان بلاط ملوك الترمان
زاهراً كثير التآلق حتى امكن للمؤرخ ابي الفداء ان يقول عنه ، بانه كان يضاهي
بلاط الخلفاء في بغداد والقاهرة . »

يقول الشريف الادريسي الصقلي في كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق

(١) يدعوه مؤرخو القرون الوسطى الافرنج « غليوم الخبيث » وذلك لميله

للمسلمين واخذه بايديهم واعتماده في المهمات عليهم .

الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عني به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ماسبق الملك المعظم رجار المعزز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبردة وايطاليا وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان في ملته بدين العدل ؛ واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ؛ وقام باسباب مملكته احسن قيام ، واجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك النرمان الذين تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الحبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكربت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صبيا تحت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور الالماني هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم وامه واخوته للامر فسمي اعينهم وحبسهم في قلعة حتى لاقوا حتفهم .

(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد في المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعي لرجار الثانى ؛ وفي ايامه تدخل الامبراطور هنرى الرابع الالماني في امر صقلية وضرب على ايدي النرمان والمسلمين معا .

النفوذ الاسلامي بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره ، في كتابه « غارات الربيع » عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين في صقلية :

« انتهى امر الاستيلاء العربي بجزيرة صقلية ؛ لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ؛ والملك رجار الثاني الذي استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثاني قد نفذوا جميعاً ما تمهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم وديانهم .

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين ضمن جنودهم ؛ وتركوهم للمدن الصقلية وكانت كلها يومئذ مدناً اسلامية (١) سائر نظمها البلدية والعرفية والصناعية وفتحوا في وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة بتولونها ، ائامعلماء المسلمين ورجال الادب ~~منهم~~ فقد كانوا خلاصة الخاصة في بلاط الملوك .

اما بالنسبة ~~لنظر~~ الرعايا المسلمين فقد كان ملوك النرمان امراء معتنقين الدين المسيحي ؛ ويقول عماري ان الامبراطور فريديريك الثاني كان كما كان رجار الثاني قبله سلطاناً من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا دينه بالمسيحية .

..... ولقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الادبية العربية امداً طويلاً وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة هوهنشتوفن كهنري الرابع وافرديريك الثاني .

« ولعلنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمي صقلية وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمي الاندلس لكننا نقول ان

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

فارقاً جسيماً بمنعنا من هذا الذنظر حيث ان المسيحيين في اسبانيا كانوا يتواون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصبين من بلادهم اما في صقلية فان الترممان انفسهم كانوا اجانب غاصبين بل كانوا في اول امرهم مغامرین مكروهين واضطروا لاصطناع الناس بحسن السلوك فقرّبوا منهم المسلمين واجملوا معاملة النصارى سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبية او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوباً باللغة اليونانية قد اُتلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هناك كمقام سائر المسيحيين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين ، اي انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا في اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة وان عدم وجود شهداء المسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسبياً ، ويقول ميكال عماري ان استشهاد وتعذيب القديس بوروكوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدي المسلمين لم يكن نتيجة تعصب ديني اسلامي بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبى الثانى الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

.... لقد ازدهر القفوق الاسلامي بصقلية ازدهاراً لامعاً من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحثة وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثاراً تباهى بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اي شيء سواء معالم الدين او الحياة المدنية انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية في قصور وكنائس الترمانيين امثال قصور القبة والعزيز والقبولاء.

او كاتندرائيات بالرمة وشفالو .

... نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضة والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ؛ ونظراً لكون البلاط الملوكي النرمانى كان بلاطاً شرقياً فى نظر امراء المسيحية ؛ كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة لكن شيئاً من ذلك لم يكن واخذت العربية تقراجع وتتقهقر خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى فى المدن وذلك يرجع لسبيين اثنين اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الالم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعاً او كرهاً بحيث ان الاسلام اضمحل تماماً من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عمارى خلال القرن الثالث عشر »

بعد مائة عام - حكاية ابن جبير - فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اي بعد

مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدي آخر ملوك النرمان دخل صقلية قافلاً من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكسائى الاندلسى فترك لنا وثيقة من اغرب وثائق التاريخ هي رحلته البديعة التى صور فيها تصويراً دقيقاً حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك النصارى فى اخرج ساعة وادق موقف اي فى الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى ونقل

نتف منه بنصها نعتبره تلمة لمبحثنا هذا ؛ يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة

بالارزاق على اختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها لكنها معمرة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى اكنافها والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد

أحسنوا السيرة في استعمارهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اناوة في فصاين من العام
يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الارض كانوا يجدونها .

... وليس في مسينا هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك

يستوحش بها المسلم الغريب . »

ثم حل يالرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « عي مسكن ملكهم غليام
Gillaume (١) وشان ملكهم عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ
الفتيان المحاييب وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير
الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله حتى ان الناظر في مطبخه
رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه
وحجابه الفتيان وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرسمون بخاصته وعليهم يلوح
رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارحة وامانهم الا من
له الحاشية والخول والاتباع وليس في ملوك النصارى اترفي في الملك ولا انعم ولا ارفه
منه وهو يتشبه في الانعام في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم
مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زبنته بماوك المسلمين وله الاطباء والمنجمون
وهو كثير الاعتناء بهم شديدا لحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طيبا او منجما
اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو
الثلاثين سنة . . . ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما
اعلمنا به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه :
« الحمد لله شكرا لانعمه » .

« واما جواربه وحظاياه في قصره فسلطات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا
به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك

(١) هو غليوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت في آخر سنة من ملكه .

ان النصرانية من الفرنجيات تقع في قصره فتعود مسلمة، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير امور عجيبة. « واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة، دعر لها هذا الشرك، فكان يتطلم في قصره، فلا يسمع الا ذا كرا لله ورسوله من نساؤه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكيننا لهم.

« واما فتياه الدين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتوجرا، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسارى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم، ويحسن اليهم،... الفينا منهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم بعد مقدمة رغبة منا اليه في ذلك، فاحتفل في كرامتنا وبرنا، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسالنا عن مكة قدسها الله، وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا،... وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام؛ فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله، ونحن كانهون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضم في اعناقنا ربة الرق...»

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مـولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم... فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم »

ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة، وكثيرة صادر ووارد وطوائف

النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسونا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقم الفتنة في نفوس اهل الجبل ٠٠٠ فانتهينا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحواله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ؛ وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة ويوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ؛ وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حذايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفي اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مييت واطيبه ؛ وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك ووصف حال مسلمي بالرمة فقال :

والمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة باذان مسموع ؛ ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، ويحتفلون في وقيد في هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمي القرآن . . .

وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين ؛ فصيحات الالسن ، ملتحفات ، متقببات ، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب

والتخفن الحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملوثة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن
لكناثسن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب
والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلقى فيها جاذراً وغباء
»...« وبقنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلمة ، وهى كبيرة مقسمة
فيها الاسواق والمساجد وسكان الضياع التي فى هذا الطريق كلهم مسلمون »
ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

» وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش
المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ؛ ...
وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات
فمجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

ابتداء امر الفتنة فى الدين — مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء

فى مدينة اطرابنش :

» تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب
بها — دمرهم الله — وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة
وغلظة الملك الى دواعي طواري الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء
من ابنائهم ونسائهم ؛ وربما نسب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى
فراق دينهم .

» فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين الغريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى فى حضرة
ملكهم الطاغية ؛ ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين
الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير
الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى

الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى ايضا فيه لما سبق من معرفته
بالاحكام الشرعية ؛ ويقم الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين ، وكان له مسجد
بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك
فاعلمنا انه يكتنم ايمانه .

«ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على
زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المفضوب عليه انفة تؤدبه الى القطارح في
الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب الابن ولا الام للبنت سيلا؛ فتخيل حال من
مني بهذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله
في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر في العواقب منهم يخافون
ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة افریطش من المسلمين في المدة السافرة
فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا
بعد حال ؛ حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .
زعيم المسلمين ابن حمود — قل ابن جبير : «وصل هذه الايام الى هذه المدينة

زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف
بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة كابراً عن
كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مرید للخير محب لأهله كثير
الصفائح الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين
من الحجاج ، الى ما ترجه ومناقب كريمة فارنحت هذه المدينة لوصوله .

وكان في هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه
من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين ايدهم
الله كادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوات عليه مصادرات اغرمته نيفاً على
الثلاثين الف دينار مؤمنة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه المورثة عن سلفه

حتى بقي بدون مال .

« فاتفق في هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذ لهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فظهر لنا من باطن حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دماً ويذيب الماء ، فمن ذلك انه قال : كنت اود لو اباع اننا واهل بيتي فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول في بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل المحمود المذكور في نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به . »
حادث له مغزاه الاليم — وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة الغريبة

التي تملؤ النفوس لوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى ، كان مقاما قد قصر امده وانتهت مدته :

« ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التي تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا الحجاج راغبا في ان يقبل منه بنتا بكرأ صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضىها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من اهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق ابينا واخوتها ، طمعا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلمهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بانفسهم اذا زالت هذه العلة المقيدة عنهم . »

« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الودعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغريها ، واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ، كما استقر بنا حال الصبية صانها الله ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى . »

فريدريك الثاني

امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للالمانيين بصقلية واربوع ايطاليا؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملت بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحي؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحي لتقوية سلطانهم المادي ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التي كانت متقدمة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت الباباوية تذكى الحمية في نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد في سبيل الصليب .

في تلك الاثناء في مفتح القرن الثالث عشر المسيحي ، تألق في السماء الاربوي نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثاني ، الذي ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذي كان يطعم في ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانها ، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النهائية للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ .

نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنستسا صقلية النشأة والمسكن ، فتربى هنالك في وسط راق رقيق الحاشية جمع الى مدينة المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقراً لسلطانها ، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالي — انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد

سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحررتهم وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية تظهر نتائجها فجمع المسلمون امرهم عند ما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على

فريدريك الصبي وخاموا طاعة الجرمانيين واصلوا الثورة لكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حيناً ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من الفتنة في الدين فكان على الامبراطور فريدريك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥

لكنه فكرفى وسيلة تمكنه في آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء من صقلية واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة نصيرة ، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة في العالم المسيحي وكان من جملة الاسباب التي حملت البابا على اعلان (كفر) فريدريك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا .

ولقد سار فريدريك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركا في الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين ؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد نيران الفتن في بلاد هودفم امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكبون بالذائرين ويحضعونهم .

تأسيس المملكة — رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تأسيس

مملكة صقلية وقد كان متشعبا بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكأنه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيباً اجم المؤرخون على انه كان حجرة الاساس في تكوين الدول الحديثة واسس الدواوين المختصة وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التي

كانت من خصائص الملك وحده وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغوريوس التاسع يعلن ان الملاحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة في نظر البابا هي حرية رجال الدين خاصة .

البلاط — في القصر الملكي بيدالمة (انظر رسمه في القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك النerman والمسلمين ؛ وجمع حوله في تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم بالالسن العربية والالمانية والاطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحراً في علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت في صقلية وجنوب ايطاليا فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولي » التي كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء في مرسوم تاسيسها « ان سائر معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولي ، لكي يجد كل جائع للعلم الغذاء الذي تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطراً للهجرة في سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم . »

وبما ان « جامعة سالرنة » الطبيعية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على الطريقة التي اختطها العلامة التونسى الصقلي (قسطنطين) (١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لاسنان ان ياشروا مهنة التطيب ما لم يكن متحصلاً على اجازة تلك الجامعة .
الافكار الدينية — كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع سائر العلماء

المسلمين شرقاً وغرباً ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس وما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظاً

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

لفلسفة ابن رشد ناشراً لها ومدافعاً عنها معجياً بفيلسوف الاندلس امية ابن ابي الصلت
ولقد كانت الحياة تلذ له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التي استعمر
بها تلك الناحية ، وهناك كان له قصر شرقي وخدم وحواشي وجواري حسان
وهناك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية . مستقيمة على الوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا
غريغوريوس التاسع منشوراً لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع
ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علناً بان العالم قد غلظه ثلاثة من الادعياء
هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد في
عنقوان المجد والشرف ، مات عيسى مودة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛
ثم يقول ان العقل البشري لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويبحر امام
الناس انه لا يمكن لانسان ان يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم الدليل على صحته
وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النقمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال
الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيراً يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهوت
يجمعون الثروات العائلية ويعيشون في السرف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Valatzes يقول فيها :
« يا لسعادة آسيا ؛ ويا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الموك ثورة شعوبهم ،
ولا دسائس رجال الدين حواليتهم » .

في الحرب الصليبية — كان البابا يستثير العامة ورجال الدين ، واوروبا كلها
ضد فريدريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفاً لتلك الغائلة ، الميدان الشرقي والحرب
الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون
على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه

سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبي محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ويربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فمما كانت الوقائع الحربية الا فائرة من الجهتين ، انتهت بعقد معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصرية ، فلم تشعب تلك الحملة نهم الباباوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريديريك لكن الامبراطور راي انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين :

يقول البابا في منشوره « لقد جاءني الامبراطور وبن جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ورايت انه على استعداد ليقوم باي عمل في سبيل منشأتنا وتحقيق غاياتنا . » ويقول الامبراطور في منشوره : « لقد خاطبني البابا بقلب مفتوح وهدأ نائرة نفسي ، فلا اريد ان اذكرك شيئا من الماضي . »

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنسي ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون في تتبع « الكفار » والتشكيل بهم ، واحراقهم ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية — اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وافراداً ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون في ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد تركت في بلاد تونس ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص « عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهداً مع الامبراطور يضمن للمسلمين في بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء للنصارى في البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون

آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية :

عندما لبي ابو زكريا داعي ربه في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٦٠ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ يادروا بنقض ذلك العهد ولجوا في طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاورار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية ، وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاخرجوا منها في تلك السنة سائر من كان قد بقي بها من المسلمين ؛ واحلوا البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار .

موت الملك واستشهاد مسلمي نصيرة — ساك الملك منذ تلك الساعة سيادة

اروية مسيحية بحنة وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن لشرقيته القديمة ونلذ له السكنى في قصره بين مسلمي نصيرة وهناك مات ودفن وله ضريح ضخم .

فلما تولى الملك شارل دانيجو ، عمد الى التخلص من جموع المسلمين في نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين بتلك البلاد راى الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش جنده سنة ١٣٠٠ فقتلواهم وبحقوا رسمهم من الوجود ووزع ارضهم واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد ما انتهى من صقلية .

(١) لاحظ ما في اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة السوفوع في تلك العصور المظلمة .